خطاب الذات والآخر في الرواية العراقية دراسة ما بعد كولونيالية

م.م هبة الله علي عبد الحسين | جامعة الإمام الصادق(ع) / كلية الآداب
hiba.allah.ali1@gmail.com

الملخص:

يسعى البحث إلى اثبات أن الرواية العراقية كانت وسطاً ادبياً بارزاً لتمثيل أهم قضايا ما بعد الكولونيالية وهي: علاقة الذات بالآخر. أصبح الاحتلال إطاراً مرجعياً في فهم العلاقة بين الذات الجمعية والآخر (المحتل)، إذ يمكن الحديث عن تجربة الاحتلال في الروايات التي سبقت عام 2003، بوصفها موضوعا جوهريا اهتم فيها بإعادة سرد الأحداث التاريخية وبناء تلك الأحداث، للكشف عن دوافعهم الاجتماعية والإنسانية. عكست الروايات بعد عام 2003 خصوصية التجربة التي مرّت بها البلد، إذ عدت هذ المرحلة مرحلة تغيير ليس على المجتمع فقط وإنما على مستوى الرواية العراقية، والتي ستكون موضع دراستنا هذه.

الكلمات المفتاحية: الذات، الآخر، ما بعد الكولونيالية، السرد، الرواية.

Discourse of self and other in Iraqi novels postcolonial study

Hiba allah Ali Abdul-Hussein
College of Imam al-Sadiq/ Faculty of Arts

Abstract:

The research seeks to prove that the Iraqi novel was a prominent literary medium for representing the most important post-colonial issues, namely: the relationship between the self and the other. The occupation has become a reference in understanding the relationship between the collective self and the other (the occupier), as it is possible to talk about the experience of the occupation in the novels that preceded 2003, as a core topic that was interested in recounting and building those historical events, to expose their social and humanitarian motives. The novels, after 2003, reflected the specificity of the experience that the country went through. In Iraq, we find that the literary production covered the experience of the occupation, this stage was considered as a stage of change not only on society but also on the level of the Iraqi novel, which will be the subject of our study.

Keywords: self, the other, postcolonialism, narrative, the novel.

مهاد نظري: التحديد المفاهيمي للمصطلحات

ما بعد الكولونيالية: (Postcolonialism)

كانـــت تؤوَّل **ما بعد الكولونيالية** بأنها تركز على «مـــا بعد» أكثر من تركيزها على

«الكولونيالي»، إذ إن «المشـــكلة الكلية للتعريف والتمييز بين فترات الكولونيالية/ ما بعد الكولونيالية أكثر إشـــكالية مما يشـــار إليه غالبا وليست لحظة الاستقلال في حد ذاتها – رغم أنها دال شـــديد الأهمية للتغيير التاريخـــي العميق...إذا كان خطر إحـــدى الطريقتين هو تجنيس وإزالـــة الاختلاف الثقافي، فخطـــر الأخرى هو منع الاستمرارات المتواصلة وعناصر التأثير الكولونيالي التي تستمر في تمييز سياسات ما بعد الكولونيالية ودولة ما بعد الكولونيالية حتى بعد تحقيقها الاســـتقلال السياسي» (أشكروفت، 2016: 213).

الخطاب (discourse):

استخدم مصطلح الخطاب في دراسات ما بعد الكولونيالية بحسب مفهوم فوكو بإنه «الملمح الجوهري للحداثة ذاتها» (أشكروفت، 2016: 141). يعد الخطاب مهماً لأنه يزاوج بين القوة والمعرفة، ومن يملك القوة يتحكم فيما هو معروف وفي الطريقة التي يمكن أن يعرف بها، وأولئك الذين يملكون مثل هذه المعرفة لديهم ســـلطة على أولئك الذين لا يملكونها، وهذا الربط بين المعرفة والقوة مهم خصيصاً في العلاقات بين المستعمِرين والمستعمَرين (أشكروفت، 2016، ينظر: 141).

الذات (self):

تؤثر مسألة الذات مباشرة على إدراك المستعمَرين لهوياتهم وقدراتهم على مقاومة ظروف وقوعهم تحت الســـيطرة أو خضوعهم، وبحسب شعار ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود)، الذي أكد من خلاله على مركزية الفرد المســـتقل، وهو المبدأ الذي فصل بين الذات والآخر، فلابد أن يُنظر إلى الذات بوصفها منفردة وبإمكانها توظيف العقل والخيال في فهم العالم وتمثيله وليس بوصفها خاضعة لما تمليه الإرادة الإلهية أو القوى الكونية. (أشكروفت، 2016، ينظر: 324).

الآخر (the other):

يشير الأخر في العموم إلى أي شخص مميز عن الذات، وتوصف الذات المستعمَرة بـ «الآخر» من خلال خطابات البدائية وأكل لحوم البشر كوسيلة لترسيخ الفصل الثنائي ما بين المستعمِر والمستعمَر وتأكيد طبيعة وأولوية الثقافة الاستعمارية والرؤية الكليّة للعالم، وفي نظرية ما بعد الكولونيالية يمكن أن يشير مصطلح الآخر الى الآخرين المستعمَرين المهمشين بسبب الخطاب الإمبريالي والمحددين باختلافهم عن المركز، والذين قد يصبحون مرتكز السيادة المنتظرة لدى «الأنا» الإمبريالي. (أشكروفت، 2016، ينظر: 262 – 263).

توطئة

من الصعب الكلام عن علاقة الذات بالآخر، أو أي مسألة تتصل بالهوية من دون الكلام عن الآخر، فلا يمكن تحقق الذات واكتمال كينونتها، والاحساس بوجودها من دون الطرف المقابل والمتمثل بالآخر، وسيكون الكلام في البحث عن الذات بوصفها (المستعمَرة) والآخر بوصفه الاحتلال على عكس نظرية ما بعد الكولونيالية، وذلك بسبب النصوص الروائية العراقية، التي تعكس وجهة نظر المجتمع العراقي تجاه الاحتلال، إذ «الشروط الأولية لبناء وحدة بسيكولوجية اجتماعية هي إنشاء صورة الآخر، فبفضلها تحقق نزعة الفرد الى انشطار بين النحن والهم والى تثمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك» (مجموعة مؤلفين، 1999: 157)، فقد شكلت هذه العلاقة تحديا كبيرا للذات فهي «إشكالية أدبية وفكرية» (مجموعة مؤلفين، 1999: 811)، وأدت هذه الإشكالية الى انقسام العرب في مواجهة الآخر الى ثلاثة اتجاهات: إذ يمثل الاتجاه الأول العرب الذين تمسكوا بالماضي تحت تأثير سلطة التراث، والثاني الذين خضعوا الى الآخر تحت تأثير الغرب والاتجاه

الثالث هـــم الذين حاولوا إقامة توازن بين الـــتراث والغرب، وعلى الأغلب يكون هذا التوازن شبه مستحيل، لأنهم في هذه الحالة هم أسرى خارج عن ذواتهم يعانون استلابا امام قوة الغرب، مما أدى الى فقدان الذات العربية خصوصيتها (الأنصاري، 1996، ينظر: 645).

ينظر الى هـــذا الارتباط الثنائي بـــين (نحن وهم) بوســـاطة المرجعيات الثقافية والفكريـــة والدينية والعـــادات والتقاليد الأدبية المختلفة «فمن المســـتحيل اختزال مسألة الهوية والاختلاف بين الذات والآخر في معطى تفسيري واحد كما أنها لا تحيل الى خزان ثقـــافي، وإنما على ثقافة حية أو على النتائج الماضية للثقافة، وعلى النشـــاط الذي ينتج هذه القضايا ويستوعبها من خلال تجاوزها» (أفاية، 2000: 8).

العلاقة بين الذات والآخر

إن إبرز مـــا يمثل هذه العلاقة هي الرواية التي تعـــد ارضا خصبة لتمثيل الهوية السردية، إذ إن كل سرد يســـتوعب ثنائية الانا والآخر، «يتضمن بالضرورة أنا وآخر ســـواء كان السارد أنا أو آخر، أو إذا كان الســـارد افتراضيا آخر كامنا خارج هذين القطبين، فالتماس هو الذي يمنح السرد وجوده ويجعله سردا، سواء كان هذا التماس توافقيا في حده الأقصى أو كان تماســـا تنافريا عبر مختلف اشكال الحروب وعمليات الخصومة والقتـــل والعداء وما الى ذلك» (صالـــح، 2003: 54)، و لهذا فإن تكوين الهوية، أو صناعة الـــذات (الأنا) يكون ذا بعدين: بعـــد اجتماعي من خلاله ينطلق الفرد بتحديد ذاته الأولية والمؤقتة «فالإنســـان هو المبدأ الفعلي للتطور الاجتماعي، وأحد القوى المحركة لســـير التاريخ، فهو يؤثر تأثيرا عميقا في البيئة والتاريخ محولا إياهما داخلا في صراع مرير مع أوضاع الحياة والظروف التي تقف في وجهه» (وطَّار، 1989: 45)، و بعـــد آخر يتحدد ويتمثل عندما يصطدم الفرد مع ذات أخرى مغايرة

عنــه وعن مجتمعه مما يجعله يرتد الى مجتمعه الأصــلي ويتخذ موقفا من الآخر يمكن تحديده في أربع مستويات كالآتي:

- موقف سلبي من الآخر _____ الذات تكون رافضة للآخر
- موقف حذر من الآخر _____ الذات يراودها الشك بالآخر
- موقف إيجابي من الأخر _____ الذات قابلة ومتواصلة مع الاخر

الذات تكون تابع للآخر

يرى بول ريكور أن الهوية السردية لا تتحقق إلا بالسرد، وأن إشــكالية التماسك والبقاء، والبحث عن الهوية، وخلق الهوية الشــخصية للفرد جميعها تتمثل في السرد (ريكــور، 1999، ينظر: 29)، «فخطاب الهوية عن ذاتها يســاعدها في مواكبة تطور الشــعور بالهوية والانتماء، أو اللا انتــماء لأزمتها المتمثلة في النضــج أو الثبات، أو التعديلات التي تطرأ عليها أو لحظات تغيرها وانكســاراتها... كما أنه يســاعد على التقرب من الارتباطات التي تحمي الهوية بالوعي العام بالذات، وابعادها الاجتماعية والثقافية» (أفاية، 1988: 20 – 21).

تتخــذ الذات موقفا مــن الآخر وفقا لمعايير محددة ســابقة يحكمها الماضي، وفق قوالب جاهزة أخذتها الذات عن الآخر وغالبا ما تنتزع الى موقف سلبي وبالأخص عند الــذات العربية التي تنطبع فيهــا فكرة عداوة الآخر لهــا والكيد والعمل على إســقاطها، وهذا ما يخلفه الاســتعمار في الذات (الانا)، مما يجعل الذات تنغلق على نفســها على وفق انتمائها الى طائفة أو مذهب دينــي أو قبلي أو عرقي كي تحافظ على كينونتها وتحمي نفســها من الآخر المعادي لها، وهذا التعبير الذي تتخذه الذات يبرز عوامل الضعف والاختلاف لديها ويؤدي الى التشــتت، فالدول القوية المســتعمرة ماتزال تحمل ترسبات الفكر الاســتعماري في ذاكرتها وتتعامل باستعلاء مع الدول

التي تحتلها ومن ذلك الضمير الجمعي الأوربي يحمل في طياته عداوة شديدة لشعوب العـــالم الثالث، وهناك صنف من الدول يمكن تصنيفه في خانة الأقوياء وهذه تكون خاضعة للعلاقات الدولية التـــي تتحكم فيها المصالح والضغوط وما يصاحبها من مساومات وتنازلات.

فنحن عندما «نتحدث عن الآخـــر فإننا لا نقصد كيانا كلياً، أو أن الذات تتماهى مع ما يشابهها فالآخر والأمر هنا يتعلق بالغرب باعتباره اختلافا ثقافياً يشكل جزءاً من نظرتنا للذات، ســـواء تقدم إلينا بوصفه شريكاً متساوياً أو في هيئة غازٍ، أو تاجر أو مبشرٍ، أو باعتباره كيانا متغطرســـا أو مهادنا.. فالآخر حال في المجال الوجودي للهوية، أنه يمثل وبشـــكل مفارق موضوع إغراء ومنبعـــا للحيطة والحذر» (أفاية، 2000: 12).

تعد الرواية أنسب الاجناس الأدبية التي تمثل هذه الثنائية، أو بعبارة أخرى تمثل الهوية والاختلاف أو ما يسمى بالغيرية، إذ يعمل العالم الروائي على سرد هوية الذات من جهة وهويـــة الآخر من جهة أخرى، ونجد في المتـــن السردي العراقي محددات العلاقة بين الـــذات والآخر ترتبط ارتباطـــاً مباشراً بمختلف الســـياقات التاريخية والسياســـية والثقافيـــة التي مرّ بها العـــراق عبر مراحل الاحتـــلال في كل عصوره وأخص بالذكر هنـــا الاحتلال الأمريكي عام 2003، وتبرز هنا إشـــكالية الهوية في المجتمع العراقي، إذ تحيلنا الى البعد الاســـتعماري قديما وحديثا، وتبحث عن طريقة استجابة المجتمع للآخر، وكيف تم التعامل معها؟

الرواية بوصفها تمثيلاً للذات والآخر:

عند البحث عن الآخـــر في الروايات العراقية المتمثـــل بالمحتل الأمريكي، نجد أن الذات في رواية «الامريكان في بيتي» تنظر الى الآخر على أنه العدو الذي ســـلب

حريتها الشخصية، وذلك بدخولها الى بيته وتعسكر في غرفة نومه المطلة على الشارع بحجة مراقبة شـــارع المطار والترصد للعابثين الذي يزرعون العبوات الناســـفة في الطريق فيقول:

«**صعـــدوا الى غرفة نومـــي في الأعلى، كانـــوا يقولون لي إنهم يريـــدون البقاء في الغرفة العلوية المطلة على الشـــارع، يقولون ذلك في نهاية ترديدهم التعليمات الأمنية ويصعدون إلى الأعلى بأقل قدر من الاستهانة العسكرية**» (عبد الستار، 2011: 35).

تكشف لنا الرواية ازدواجية الذات المتمثل ببطل الرواية جلال تجاه الآخر، فمرة نراه ينظر إلى الآخر أنه العدو ويقاومه ثقافيا بانتهاز فرصة أنه صحفي ليكتب التقارير التي تفضح استيلاءهم والتحكم في كل شيء في البلد، ويصفه بالشيطان لاستخدامه العاطفة معه تارة، والعنف تارة أخرى إذ لا يمكن معرفة ما يدور في رأس الآخر من مخططات فيقول: «**توجد شياطين بحجم أصابع البطاطا المقلية تلعب كرة سلة داخل جماجم الأمريكان لذلك من الصعب التكهن بردود أفعالهم لقد سُكت طوال الأشهر الماضية لأنني أخاف أن يدفعهم تمردي إلى اعتقالي**» (عبد الستار، 2011: 45).

تظهر الذات في مواجهة الآخر مســـايرة له وتطيعه، بل حتى تســـاعده في أعمالهم العســـكرية وتشـــاركه طعامه وبيته، وفي الخفاء تســـير بهوية مزورة لتخفي هويتها ومهنتهـــا الأصلية (الصحفي)، خوفا من الآخر اعتقالهـــا، أو الحاق الأذى بعائلتها لأنها تقاومه ثقافياً، بالكتابة عنه، إذ يســـتمر الـــصراع والهيمنة بينهما، وهذا الصراع يؤدي إلى سعي الذات لتشـــكيل هوية ثقافية تدافع بها وتحافظ على تراثها الذي كان الآخر المتسلط سببا في خرابه.

ترى الذات نفسها في رواية «ليل علي بابا الحزين» لعبد الخالق الركابي، أنها عدمية بائســـة تمر في مرحلة عزلة متغلب عليها اليأس، والقنوط، والخوف من الآخر الذي

كان مستغلاً خيرات بلدها، وسعى إلى تخريب كل شيء، إذ أصبحت الحياة لديها معدمة، مهددة بالموت في أي لحظة، فيقول:

«**كنت يائساً – نعم، لمَ لا أعترف بالحقيقة؟ فقدت إيماني بجدوى الكلمات؛ لا قدرة لي على إضافة كتاب آخر إلى عالم تحول فيه الإنسان إلى محض رقم مهمل بين مليارات الأرقام الأخرى؛ يزيده التقدم التكنولوجي عزلة وبؤساً**» (الركابي، 2013: 8)، فتنظر الذات الى نفسها أنها لا قيمة لها، مشتتة فاقدة للهوية في بلدها الذي تم استلابه من قبل الآخر، فهي رافضة لوجوده على الرغم من أن بعض عناصر الذات تراه مخلصا من النظام السابق، فيقول:

«**لا شأن للثقافة بأمر على هذا القدر من الوضوح؛ فكراهيتي للسلطة لا تسوّغ ترحيبي بالمحتل**» (الركابي، 2013: 112).

وذات أخرى مرحبة بالآخر تقول: «**فمنذ إطلاق سراحي – أو تحريري بفضل الأمريكان**» (الركابي، 2013: 36).

وفي المقابل يؤكد الآخر على عنف الذات وتخلفها وينظر اليها دوما بنظرة دونية، يصفهم ويشبههم بلصوص علي بابا الشخصية المستمدة من ألف ليلة وليلة، عندما عمد بعض الرعاع الى سرقة دوائر الدولة بعد الاحتلال تعبيراً عن الكبت والحرمان الذي لازمهم طوال سنوات الحكم الدكتاتوري للنظام السابق والمحتل يقول لهم:

«**– برافو... ألي بابا... برافو...ألي بابا!!**» (الركابي، 2013: 123)، فهذه الذات التي لا تستطيع مقاومة الآخر، إذ يتغلب عليها الخوف والهرع وترى في المحتل(الأمريكي) امتداداً للاحتلال البريطاني سابقاً وطمعهم في استغلال العراق حيث:

«**إن أطماع الأمريكيين في العراق قديمة قدم أطماع البريطانيين؛ فقد كان الطرفان**

يتنافســـان للاســـتحواذ على البلاد منذ مفتتح القرن العشرين، متخذين من حملات التبشـــير والتنقيب عن الآثار واســـتخراج النفط، فيما بعد وسائل للتغلغل وكسب النفوذ» (الركابي، 2013: 139).

فضلاً عن أن الذات التي تتحدث بلسان المتكلم المشارك في الأحداث والشاهدة عليها واعية لما يعمله الآخر من سياســـات يقتص منها وينظر لها نظرة دونية، بحكم هيمنته وقوته المسيطرة عليها فهي:

«لم تنتج تلك الأفلام الضخمة المكلفة حباً بســـواد عيني وسواد عيون من هم على شـــاكلتي من الأغبياء في حين أن الغرض الرئيس من تلـــك الأفلام هو تأكيد عنف العرب وتخلفهم وفسادهم الجنسي» (الركابي، 2013: 140).

وبالرغم من وعيها فيما يمارســـه الآخر معها إلا أنها تصف نفسها بالغباء، فالآخر مســـتعداً للتكلفة الضخمة مقابل أن يظهرها جاهلة، متخلفة، فاســـدة ليست لديها فائدة، معدمة لا قيمة لها، وبالتالي يتشكل الصراع والعداء بينهما.

ونرى أن جاســـم المطير قدّم روايته «شـــظايا في عيون بغداد»، بطريقة مختلفة عما ســـبق، فهو يصف لنا الذات ومعاناتها ومشـــاكلها بلســـان الآخر المتعاطف معها، المتمثـــل بالصحفي الأمريكي الذي جاء إلى بغداد بمهمة مكلف بها من قبل الجريدة التي يعمل معها. ويرى هذا الآخر أن سياســـة ممثله واتباعه عبارة عن **«تطبيق نزعة شيطانية أطلق عليها بحماســـة عنوان: تحرير بلاد الرافدين»** (المطير، 2014: 5)، وأنه القوي الذي يتعجب الجميع من سياسته السحرية المنقذة **«يا لبهاء أمريكا.. يا لقوتها العســـكرية المنقذة.. اقبلونا حلفاء»** (المطـــير، 2014: 9)، وتظهر الذات هنا مرحبة بالمحتل (الآخر)، وتابعة له:

«حتى بعض القادة العراقيين من الذين عقدوا مؤتمرهم في لندن في ديســـمبر 2009

استمتعوا بقرار الحرب لأنه سيضع الذهب الأحمر والأصفر والأسود كله بين أيديهم حين تنتزع الصواريخ تاج الدكتاتور ومعطفه العسكري ويدوسهما جنود أجانب أمام القصر الجمهوري في الكرخ ليرميانهما في ماء دجلة» (المطير، 2014: 9)[1].

يظهر النص ترحيب معارضي النظام الدكتاتوري، للاحتلال بوصفه مخلصاً، فقد ركز المحتل على ضعف الذات من خلال أيديولوجية تغير النظام السابق، ونشر الحرية. في حين هناك ذات أخرى رافضة له وكارهه لوجوده.

ونرى في رواية «الفتنة» لكنعان مكية ظهور الذات ممزقة تقاتل على الهوية متنازعة فيما بينها، فالآخر عمد إلى تفكيك الذات سياسيا وثقافياً، يصفها بأنها خائنة لعناصرها، كون أحداثها تدور حول الصراع الطائفي بين أفراد المجتمع العراقي، والقتل الذي أصبح يملأ شوارع بغداد، إذ جعل الآخر الذات تتنازع في الحصول على الحكم وأظهر خيانتهم وولاءهم لبلاد أخرى على حساب وطنهم وهويتهم الأم. في حين يظهر لنا مكية أن الذات متصالحة متكاتفة تبحث عن حل لإزاحة الآخر من طريقها وإبعاده عنها إذ يقول:

«في هذه الحالة يجب عليك أن تفكر بالموضوع من زاوية مختلفة. عُد إلى حيث بدأنا، العراق: هو الجائزة التي يسعى إليها الجميع. هل يمكننا نحن الشيعة أن نحكم البلد لوحدنا أم أننا نحتاج إلى دعم من إخواننا السنة؟ ماذا تعتقد؟» «لا حاجة لنا للتفكير، يجب أن نحكم البلد سوية» (مكية، 2016: 129) فتسعى الذات هنا إلى إطفاء ما اشعله الآخر من فتنةٍ بينهم وتحريضه على الكراهية، وتستدرك الذات إلى ما يقوده الآخر فتقول محدثة نفسها: **«هل يجب أن ننفخ في لهيب... أم نسعى لإطفاء هذا اللهيب؟» «نطفئه طبعا نحن كلنا مسلمون بل أننا ننتمي إلى نفس العشائر ونتزاوج**

(1) ربما هناك خطأ مطبعي في متن الرواية، فيذكر الروائي سنة انعقاد المؤتمر 2009، وهو انعقد في 2002.

من بعضنا» (مكية، 2016: 129).

إما مرتضى كزار في روايته «طائفتي الجميلة» ينشـــئ لذاته طائفة للنحل «**سأعمل على تأســـيس طائفتي الخاصة»... «طائفة خاصة من الحيوانات.. النحل تحديداً وقد أضيف لها كائنات أخرى»** (كزار، 2016: 53).

يظهر لنا الذات ممزقة متغلباً عليها الخوف من الموت المجاني الذي ملأ الشـــوارع، أصبحت الذات لا مكانة لها ولا تستطيع الدفاع عن أبسط حقوقها.

فقد أظهرت لنا الروايات العراقية الصراع المستمر بين الذات والآخر، إذ أشارت الى ســـيطرة الآخر، ومحاولة إخضاع الذات وإهانتها والنظر إليها باســـتهزاء، فضلا عن الانتقاص من تقاليد الذات الاجتماعية والثقافية، وحتى السياســـية. وواجهت الذات الآخر بنمطين متناقضـــين مرة بالترحيب به وقبولـــه والتحالف معه، ومرة أخرى برفضه وكرهه وإظهار العداء له، فضلا عن التصور والحكم المســـبق في وعي الطرفين حول بعضهما.

تتجلى صورة الصراع بين الذات والآخر في الكثـــير من الروايات العراقية(عينة البحث)، ففي رواية «الحفيدة الأمريكية» لأنعام كجه جي نجد هذا الصراع متمثلاً في الأحداث التي تدور بين الجدة والحفيـــدة وكيف تعاملا مع الاحتلال، فالحفيدة المهاجـــرة الى أمريكا منذ الصغر تجد في المهمة المكلفة بهـــا كمترجمة مع المحتل عملاً إنسانيا وواجباً وطنياً، بينما الجدة تجد في ذلك خزياً وعاراً وترى حفيدتها متمردة على عادات بلدها القيمة وأعرافه. فهو صراع بين الذات نفسها لمواجهة الآخر، فنقد زينة لرفض جدتها في قولها:

«رفضت جدتي أن تأكل أو تشرب في المعســـكر ورغـــم حرارة الجو دفعت بيدي الممـــدودة لها بقدح المـــاء، كأن ماءنا زرنيخ ثم قامت وعـــادت من حيث أتت وقبل

أن تتحرك بالسيارة سمعتها تعاتبني: يعني ضرورية كانت شغلتك الماسخة في هذا المكان» (كجة جي، 2009: 75).

يؤكد أن الذات متمسكة في هويتها الأم مهما هاجرت وعايشت بيئة أخرى، فتبقى متمسكة بهذا الانتماء، إذ تحرص على لغتها ولهجتها خوفا من النسيان، خوفا من تغلب لغة الآخر عليها فتقول الحفيدة مستذكرة بتقنية الاسترجاع: «**أمر واحد كنت واثقة منه هو أن عربيتي لا تشوبها شائبة. أنها اللغة التي انتقلت إليّ عدواها من أبي الآشوري وهو لم يكن يشتري لي الألعاب التي تناسب عمري لأن المطاردة الشعرية كانت لعبتي المفضلة معه**» (كجة جي، 2009: 20).

فحين يطغى إحساس الذات بظلم الآخر وعداءه وهيمنته عليه حينئذ تلجأ الذات في أن تقوي انتماءها الى هويتها، كي تشعر بالإحساس بوجودها وكينونتها، فبهذا الانتماء تتميز به عن الآخر يشعرها بالتمسك بهويتها، ولذلك نجد الجدة في الرواية تؤكد على ثقافة بلدها. وفي وصف مشابه لهذا التمسك نراه لدى حوراء النداوي في رواية «تحت سماء كوبنهاغن» عندما دهنت شقتها باللون نفسه في بيتها في العراق لتشعر إنها في اجواء بيتها لم تغادره ولم تغترب، لتنسى ولو لولهة إنها مستقرة في حين إنها تشعر بالتمزق والشتات في بلاد لا هوية لها بها رافضة لها ولوجودها وتنقد نفسها بسبب ما حل ببلادها البعيدة التي لا يسمح لها في أن تقف موقفا وطنياً فـ

«**وطنيتك هنا لا معنى لها.. فأنت بعد كل ما أنتِ عليه من وطنية لست سوى أجنبية**» (النداوي، 2010: 135). تشعر الذات بالاغتراب فاقدة للأمل في البقاء في وطنها وفي الدفاع عنه ومقاومة الآخر ومواجهته.

تلتقي رواية «الأجنبية» لعالية ممدوح مع الروايات الأخرى التي تنتمي لما بعد الكولونيالية على الرغم من إنها عبارة عن سيرة ذاتية لها إلا أنها تمثل معاناة الذات في

الوصول الى الآخر وكيف عانت الذات في لغة الآخر التي لا تعرف منها شـيئا ولا تستطيع التكلم بها فتسعى لتعلمها وتجد في ذلك معاناة شديدة فتشعر نفسها مهمشة لم تستطع التعبير عن نفسـها في مواجهة الواقع، ومعاناتها بسبب ما يحدث في بلدها العراق منذ النظام السابق وحتى بعد الاحتلال فتقول: «**أظن كلّ عراقي بمعنى من المعاني وبعد التي واللتيا يستقل قطاره وحده فيكاد يصل إلى مكان بعينه إلى لا شخص بذاته**» (ممدوح، 2013: 185). إذن لا مكان لها، ولا هوية تثبت وجودها، فشعورها بالتهميش متغلب عليها. ومثلت رواية فرانكشـتاين في بغداد الآخر الأمريكي، إذ ظهر عدوانيا للذات مسـتحوذا على بغداد ويسـتهين بخصوصيتها، مخيفاً لها، ولا تسـتطع أن تعبر عن ما في داخلها تجاه الآخر الغـازي لها فتراه عدواً يتصيد لها حتى يزجها في تهمة والقضاء عليها حيث يقول في حوار يدور حول مقتل الشحاتين:

«**انته عارف لما يمسـكوك الأمريكان ياخذوك على فين؟ الله وحدو العالم أي تهمة يلبسوك**» (سعداوي، 2014: 97).

فنرى الآخر يرتكب الجرائـم والاغتيالات ويعمل على تفرقة الذات وتمزقها بل ازالتها من الوجود بممارسـة قتلها وهذا العداء الذي نجـده في الرواية ليس غريبا بل أن أغلب الروايات نجدها صورت هذه النظرة العدائية على مسـتوى الروايات العربية التي تحدثت عن الاحتلال الأمريكي للعراق أيضا، وليس الروايات العراقية فقط. وربما يرجع ذلك إلى محنة الاحتـلال التي مرَّ بها المثقفون، ومواقفهم الرافضة للآخر تجعلهم يحولون كتاباتهم الى وثيقة شـاهدة على عصرهم فنجد مؤلف رواية فرانكشـتاين في بغداد عندما شعر بخطر يهدد حياته عندما يعتقله المحتل وخوفا من مصادرة روايته التي تدور حول أحداث العنف في العراق:

«**كنت أكتب مع شيء من القلق والخشية أنْ يُفتح باب غرفتي في فندق الفنار فجأة**

ليتم اعتقالي. وهذا ما حدث في النهاية. كانت نسخة غير مكتملة من الرواية بسبعة عشر فصلاً في يدي حين تم اعتقالي بلطف داخل الفندق (...) أعادوا لي حاجياتي ومتعلقاتي الشخصية، ولكن من دون نسخة الرواية. لقد تمت مصادرتها بشكل نهائي ويبدو أنّي لم أعد مخولاً بالتصرف بها أو إكمالها» (سعداوي، 2014: 338)؛ ولذلك يقرر ترك روايته والهرب: «**جمعت أغراضي على عجل وتحاسبت مع صاحب الفندق ثم غادرت هارباً إلى بيتي**» (سعداوي، 2014: 339).

فهذه هي أعمال المحتل يصادر صوت المثقف بأمور عدة منها تهديده بالقتل واعتقاله ومصادرة ما يكتبه حتى يسلب الذات حقها ويهمشها، يتركها بلا قيمة. وتولد فكرة إلغاء الآخر بسبب مشاعر الكراهية التي تعتمد في جوهرها على طريقة توجيه الخطاب، فـ الكره انفعال بارد ومقصود. يهدف إلى إلغاء وجود عدّو ما، سواء أكان شخصا أو شعبا، أو ثقافة، أو دينا، وهو انفعال يُبنى ويُهدم حسب حاجات المجتمع (المسكيني، ينظر: 33 – 34). وتبعاً للكراهية المتولدة بين الإنسان والآخر؛ فالمجتمع والثقافة مهددان باستمرار بالتفكك (الهلالي، لرزق، 2009: ينظر: 26 – 27).

نرى في رواية «القنافذ في يوم ساخن» لـ فلاح رحيم انقسام الذات الجمعية بين مؤيد ورافض للاحتلال وتكون العلاقة بحسب الأيديولوجية المرتكزة لدى الذات فيقول سليم:

((كل تواصل مع العراقيين أو العرب حولي ينتهي إلى تململ داخل شبكة المفارقات المحيرة لا يفعل إلَّا زيادة الإحساس بها (...) الاحتلال الأمريكي مفارقة محيرة ومواقف العرب والعراقيين منه مفارقة محيرة هي الأُخرى، الناقمون على الاحتلال يدفعهم، أما حنين إلى نظام استبدادي جائر، وأما حلم زائف في إقامة الدولة الإسلامية التي ستحق الحق. الراضون بالاحتلال حولوه إلى وسيلة ثأر

وتهديم وإثراء ونهب وانتهى بهم المطاف اليوم إلى الحرب الطائفية كل هذه الخيارات بعيدة عني)) (رحيم، 2012: 40).

تشير هذه المعاناة النفسية إلى وجود مشكلة معرفية بين فكرتي الاحتلال والحرية في الإدراك والمفهوم، فمع القيم والمبادئ التي تعرفت إليها الشخصية العربية والقاضية برفض الاحتلال، تنشأ فجوة بين المعرفة والتطبيق، تفضي إلى عجز الشخصية عن الوصول إلى موقف واضح (غضبان، 2019، ينظر: 106). كما يشير الموقف الجديد(الانعزال) إلى التصدعات في الهوية العربية الجامعة، وتبدو (العزلة) – أي عزلة الفرد – واقعا وحقيقة بعدما تحطم المعيار أو العرف المشترك» (جاسم، 1985: 31)، وهو ما يشخصه سليم في الرواية:

«لقد قررت منذ سقوط بغداد عام 2003 أنْ لا سبيل إلى التفاهم بين العراقي وأخيه العربي بشأن ما يحدث، وأنَّ المودة بينهما يجب ألَّا تعدو حدود المشاعر العصبية البحتة التي لا سند لها في المنطق والتوافق العقلي» (رحيم، 2012: 23)، ويبدو أن حضور الآخر المحتل أو المستعمر في الرواية العراقية قد تمثل بشكل واسع، فمن خلال تتبعنا لمعظم الروايات التي تناولت موضوعة الاحتلال الأمريكي نجدها أنها نقلت وجهة نظر المجتمع العدائية له وهذا لا يأتي من فراغ، فالممارسات التي يمارسها المحتل في البلد ونظرته إلى الذات على أنها متخلفة وغير متحضرة هي من جعلت هذه الصورة تكون هي السائدة.

استخلاص النتائج:

– تنظر الذات الجمعية الى الآخر المحتل في مجتمع ما بعد الكولونيالية بوصفه السلبي والعدائي فضلاً عن كونه مستبداً.

– يسعى الآخر المحتل الى اخضاع الذات الجمعية واهانتها باستمرار، فضلا عن

انتقاصه من تقاليد الذات الجمعية.

- واجهت الذات الآخر بنمطين متناقضين مرة بالترحيب به وقبوله والتحالف معه، ومـــرة أخرى برفضه وكرهه وتكن العداء لـــه، فضلا عن التصور والحكم المسبق في وعي الطرفين حول بعضهما.

- لم تكن الكولونيالية ذا طابع عســكري وســياسي فقط، بــل كانت لها تأثيرها الثقافي الكبير على الذات الجمعية، لأن جزء من الممارســات الغربية في الاستعمار داخل المجتمعات المســتعمرة خلق هويات ثقافية مختلفــة ومتنوعة، فضلا عن ســعيه لطمس هوية الذات، وبالتالي يصبح الاختلاف أو التنوع الثقافي يفرض نفسه داخل العلاقات والمجتمعات الإنسانية.

المراجع:

أولاً: الروايات

- رحيم، فلاح.2012 **القنافذ في يوم ساخن**. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. ط1.
- الركابي، عبد الخالق.2013. **ليل علي بابا الحزين**. دار ومكتبة عدنان. بغداد. ط1.
- سعداوي، أحمد.2014. **فرانكشتاين في بغداد**. منشورات الجمل. بيروت. ط4.
- عبد الستار، نزار. 2011. **الأمريكان في بيتي**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.
- كجة جي، إنعام. 2009. **الحفيدة الأمريكية**. دار الجديد. بيروت. ط1.
- كزار، مرتضى. 2016. **طائفتي الجميلة**. منشورات الجمل. ط1.
- المطير، جاسم. 2014. **شظايا في عيون بغداد**. الدار العربية للعلم ناشرون. بيروت. ط1.
- مكية، كنعان. 2016. **الفتنة**. منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2016.
- ممدوح، عالية.2013. **الأجنبية**. دار الآداب للنشر والتوزيع. ط1.
- النداوي، حوراء.2010. **تحت سماء كوبنهاغن**. دار الساقي. لندن. ط1.

ثانياً: الكتب

- أشكروفت، بيل وأخرون. 2016. **دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسة**، تر: أحمد الدروبي وأخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1.
- أفايــة، محمد نور الدين. 1988. **الهوية والاختلاف: (المرأة الكتابة والهامش)**. المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء.
- أفايــة، محمد نور الدين.2000. الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإســلامي الوسيط. المركز الثقافي العربي. ط1.
- الأنصــاري، د. محمد جابر. 1996. **الفكر العربي ومصارعة الاضداد**. بيروت. المؤسســة العربية للدراسات والنشر.
- المسكيني، د.فتحي. (د.ت). **الهجرة إلى الإنسانية**. كلمة. للنشر والتوزيع، تونس.
- الهلالي، لرزق، محمد وعزيز. 2009. **العنف: دفاتر فلسفية**. دار توبقال للنشر. المغرب. ط1.
- جاســم، د. محسن الموســوي. 1985. **عصر الرواية مقال في النوع الادبي**. منشورات مكتبة التحرير. بغداد.

- ريكور، بول. **1999. الوجود والزمان والسرد.** تر: سـعيد الغانمي. المركز الثقافي العربي. ط1.
- صالح، صلاح. **2003. سرد الآخر (الأنا والأخر عبر اللغة السردية)**، المركز الثقافي العربي. ط1.
- مجموعة مؤلفين 1999. **صورة الآخر، العربي ناظرا ومنظورا اليه.** تحرير: الطاهر لبيب مركز دراسات الوحدة. ط1.
- وطَّـار، الطاهر. 1989. **تجربة الكتابة الواقعية، الرواية انموذجا، دراسـة نقدية.** مؤسسـة الوطنية للكتاب. ط1.

ثالثاً: الأطاريح والرسائل الجامعية:

- غضبان، نادية. 2019. **تمثلات الحرب الأهلية في الرواية العربية.** أطروحة دكتوراه. الجامعة المستنصرية. كلية الآداب.